

القَصَصُ الدِّينِيُّ
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

شَقَاق

عبد الحميد جودة السحار

شقاق

١

الفرقة شائعة بين مسلمي الأندلس ، والحرب دائرة بين ملوك الطوائف . ابن عباد ملك أشبيلية يعاقد ألفونسو ملك قشتالة ، على حرب ابن ذي النون ، للاستيلاء على طليطلة . وألفونسو ينتهز فرصة انقسام المسلمين ، ليوسع رقعة ملكه ، ويقوى سلطانه ، على حساب ملوك الطوائف المتنازعين . وجمع ألفونسو ملك قشتالة جموعه ، وانطلق إلى طليطلة ، وحاصرها حتى خربت ، وشدد الحصار عليها حتى اشتد الجوع بأهلها . ولم يخف على عقلاء المسلمين أن هذا الانقسام سيؤدى إلى انهيار صرح الإسلام في الأندلس ، وأن سقوط طليطلة معناه بداية النهاية للمسلمين في أوربة . فنهض

أبو الوليد قاضى باجَه يطوفُ بالولايات ، يدعو إلى
الاتِّحادِ ونبذِ الخِلافِ ، للإبقاء على الأندلس
الإسلامية . ولكن ذهبَتْ صيحاتُه أدراجَ الرياحِ ،
فقد أعمتْ شهواتُ الملوكِ بصائرَهم ، فلعجوا في
عداوتهم ، وظلَّت الحروبُ الأهليةَ حاميةَ الوطيسِ ،
والعدوُّ يتربَّصُ الدوائرَ بهم جميعا .

ووقفَ ملوكُ الطوائفِ جامدين ، يهدونَ حصارَ
ألفونسو لطليطلة ، دونَ أن يُحرِّكوا ساكنا .
وحوصرتِ المدينةَ حصاراً شديداً ، وتركتْ لمصيرِها
المحتوم ، ورأى مُسلمو طليطلةَ خِذلانَ إخوانهم لهم ،
وأنه لا أملَ لهم في الحياةِ إلَّا بالتَّسليمِ ، فاتَّفَقوا مع
ملكهم « القادر » ، على أن يعيشوا إلى ألفونس
يطلبونَ الصُّلحَ .

ومشى الرُّسلُ إلى ألفونسو ، فسَدَّ أذنيه عن
رسالتهم ، وأبى أن يُصغى إليهم قبلَ تسليمِ المدينة ،

فَأَغْضَبَ ذَلِكَ رَجَالَ الْمُسْلِمِينَ الْمُحَاصِرِينَ ،
وَعَزَمُوا عَلَى أَنْ يُدَافِعُوا عَنْ مَدِينَتِهِمْ وَشَرَفِهِمْ ،
حَتَّى الرَّمَقِ الْآخِرِ . وَلَكِنَّ الْغَوَّاءَ طَلَبُوا التَّسْلِيمَ ،
فَمَا كَانَ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا أَنْ يُنْقِذُوا أَرْوَاحَهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ .
وَأَرْغَمَ رُؤَسَاءُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى إِنْفَازِ وَفْدٍ إِلَى
أَلْفُونَسُو مُلْكِ قَشْتَالَةَ ، يَعْرِضُ عَلَيْهِ تَسْلِيمَ الْمَدِينَةِ ،
عَلَى أَنْ يَعِدَّ بِتَأْمِينِ النَّاسِ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ،
وَالْإِبْقَاءِ عَلَى حُرِّيَّةِ الدِّينِ ؛ فَوَعَدَ أَلْفُونَسُو بِذَلِكَ .
وَرَحَلَ « الْقَادِرُ » مُلْكُ طَلِيْطْلَةَ عَنْهَا ، وَسُلِّمَتْ
الْمَدِينَةُ لِأَلْفُونَسُو ، فَطَارَ صَيْتُهُ ، وَازْدَادَ قُوَّةً ؛ وَلَا حَاجَ
أَنْ يَبْقَاءَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْأَنْدَلُسِ صَارَ مَرَهُونًا بِاتِّحَادِ
رُؤَسَائِهِمْ ، وَلَكِنَّ الْمَطَامِعَ الشَّخْصِيَّةَ طَمَسَتْ
قُلُوبَهُمْ ، فَاسْتَمَرُّوا فِي الشَّقَاقِ الْبَغِيضِ .
وَتَنَمَّرَ أَلْفُونَسُو ، وَسَفَرَ عَنْ وَجْهِ الْحَقِيقِيِّ ، فَبَإِذَا
بِهِ عَدُوٌّ لِكُلِّ حَاكِمٍ مُسْلِمٍ ، لَا فَرْقَ عِنْدَهُ بَيْنَ

ابن عَبَّادِ الذِي آزَرَهُ يَوْمَ أَغَارَ عَلَى الْمَمَالِكِ النَّصْرَانِيَّةِ
الصَّغِيرَةِ ، مِثْلَ لِيُونٍ وَجَلِيقِيَّةٍ وَنَافَارٍ ، وَبَيْنَ يَحْيَى
ابْنِ ذِي النُّونِ الذِي حَارَبَهُ فِي طُلَيْطَلَةَ . أَرْسَلَ
جُنُودَهُ إِلَى إِمَارَةِ سَرْقُسطَةَ ، فَهَبَ مَلِكُهَا أَبُو جَعْفَرٍ
ابْنَ هُودٍ ، يَدَافِعُ عَنْهَا دِفَاعَ الْمُسْتَمِيتِ ، وَأَرْسَلَ إِلَى
ابْنِ الْأَفْطَسِ مَلِكِ بَطْلَيْوسَ يَدْعُوهُ إِلَى تَسْلِيمِ بَعْضِ
حُصُونِهِ ، وَطَالِبَ الْمُعْتَمَدِ بْنِ عَبَّادٍ مَلِكَ أَشْبِيلِيَّةِ ،
الذِي أَعَانَهُ يَوْمَ تَوَلَّى مَلِكُهُ وَهُوَ مَهِيضُ الْجَنَاحِ ،
حَتَّى اشْتَدَّ سَاعِدُهُ ، بِتَسْلِيمِ بَعْضِ حُصُونِهِ ، فَثَارَ ابْنُ
عَبَّادٍ لَذَلِكَ ، وَرَاحَ يَتَأَهَّبُ لِلْقِتَالِ .

وَكَتَبَ ابْنُ عَبَّادٍ إِلَى مَلُوكِ غَرْنَاطَةَ وَالْمَرِيَّةِ
وَبَطْلَيْوسَ يَدْعُوهُمْ لِلْاجْتِمَاعِ وَالتَّشَاوُرِ ، فَالْتَأَمَ
عِقْدُهُمْ فِي أَشْبِيلِيَّةِ ، وَقَرَّرُوا دَعْوَةَ يَوْسُفَ بْنِ
تَاشَفِينَ ، أَمِيرِ الْمُرَابِطِينَ بِالْمَغْرِبِ ، لِلذُّودِ عَنِ الْإِسْلَامِ
فِي الْأَنْدَلُسِ .

وصل رُسُلُ ابنِ عَبَّادٍ إلى يوسُفَ بنِ تاشفينَ ،
 يطلبونَ منه إنقاذَ الإسلامِ من سيطرةِ ملوكِ أسبانيا ،
 فقبلَ أن يذهبَ بنفسِه للجهادِ ، على أن يُعطِيَه ابنُ
 عَبَّادٍ ثغرَ الجزيرةِ ، حتى يكفلَ بذلكَ سَلامةَ طريقِه
 في الذهابِ والعودةِ ، فأجابَه ابنُ عَبَّادٍ إلى ذلكِ .

وخرجَ يوسُفُ في جيشِ جرَّارٍ ، يبغي الجهادَ في
 سبيلِ اللّهِ . ولَمَّا بلغَ الجزيرةَ استقبلَه ابنُ عَبَّادٍ ،
 وسارَ في رُفقتِه لقتالِ ألفونسو ، الذي بدا نجمُه
 يتألقُ في سماءِ الأندلسِ .

كان ألفونسو في حربٍ مع ابنِ هود ، أميرِ
 سَرَقُسطَة ؛ فلَمَّا بلغَه عبورُ يوسُفَ ، تركَ ابنُ هود ،
 وأهابَ بملوكِ أراجونَ ونافارَ وغيرَهما أن يهْبُوا
 لمُؤازرتِه في قتالِ المسلمين ، فلبُّوا دَعوتَه ، وتقاطروا

عليه من كل صوب ، يتصايحون صيحات القتال .
وخرج يوسف من أشبيلية ، وحوله جنوده البربر
وجنود المسلمين من أهل الأندلس ، والتقى الجمعان
في سهل الزلاقة ، المسيحيون في ثمانين ألفا ،
والمسلمون في عشرين ألفا ؛ ودارت رحى معركة
رهيبة ، معركة أطاحت فيها رءوس عشرين ألفا ،
انتهت بفرار ألفونسو ، وانتصار المسلمين ، ولم
تكتف الجيوش الإسلامية بهذا النصر ، بل تقدمت
إلى الشمال تسترد القلاع والحصون .

وعاد يوسف بن تاشفين إلى أشبيلية منتصرا ،
فأعاد الثقة في النفوس إلى حين .

انطلق يوسف بن تاشفين في القصر وهو مأخوذ : نقوش
بديعة تحير الأبواب ، وأعمدة رخامية هائلة ، عليها عقود
تحمل السقف الذي غطى بالزخارف ، والحيطان على
ارتفاع مترين قد غطيت بالفسيفساء الجميلة .

وسارَ إلى قاعةِ الاستقبال ، تحوُّطُه الفخامة ،
وجلسَ تحتَ القُبَّةِ الفخمة ، وقد راحَ ينظرُ إلى
أعمدةِ الممرِّ الرائعة ، التي حملتْ شُرُفاتِ ثلاثا ،
تُطلُّ على القاعة .

وجلسَ ابنُ عَبَّادٍ إلى جوارِ يوسف ، الذي جاءَ من
الصحراءِ لإنقاذِ الإسلام ، وأظهرَ له ضروباً من
الحفاوةِ والكرم ، فإذا بالشُّعراءِ يتوافدونَ يترنِّمونَ
بكرمِ ابنِ عَبَّادٍ وشجاعةِ ابنِ تاشفين ، وإذا بالنبلاءِ
والعُظماءِ يتقاطرونَ على القصرِ مُهنِّئين ، وإذا بالملأِ
من الناسِ يتصايحونَ خارجَ القصرِ فرحين ، فقد
تَبَّتْ ابنُ تاشفينَ أقدامَ الإسلامِ في الأندلس ، بعدَ أن
أوشكتْ ريحُه أن تذهبَ من تلك البلاد .

٣

وعادَ يوسفُ بنُ تاشفينَ إلى المغرب ، ولكنَّ جمالَ
الأندلسِ لم يبرحْ ذِهنَه . وإنَّه ليرى رياضَها

ورياحينها وجناتها وثمارها وخيرها الوفير ، فيشغل
فكره بالاستيلاء عليها ، والقضاء على ملوك
الطوائف الغارقين في اللهو والمجون ، ليعيد للإسلام
مجده الأول .

إنَّ الْمُعْتَمِدَ بَنَ عِبَادَ ، أَقْوَى مُلُوكِ الطَّوَائِفِ ،
وَأَكْثَرِهِمْ دَهَاءً وَكِيَّاسَةً وَشَجَاعَةً ، أَطْلَقَ لِلذَّاتِ
الْعِنَانِ ، حَتَّى إِنَّهُ يَوْمَ عَزَمَ عَلَى إِرْسَالِ حَظَايَاهُ مِنْ
قُرْطُبَةٍ إِلَى أَشْبِيلِيَّةٍ ، خَرَجَ مَعَهُنَّ يُشَيِّعُهُنَّ ، فَسَايَرَهُنَّ
مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى الصُّبْحِ ، فَوَدَّعَهُنَّ وَرَجَعَ يَنْشُدُ :
سَايَرْتُهُمْ وَاللَّيْلُ أَغْفِلُ ثَوْبَهُ

حَتَّى تَبْدَى لِلنَّوَاطِرِ مُعْلَمًا

فَوَقَفْتُ ثُمَّ مَوَدَّعًا وَتَسَلَّمْتُ

مَنْ يَدُ الْإِصْبَاحِ تِلْكَ الْأَنْجَمَا

وِظْلَ ابْنِ تَاشَفِينَ يَفْكُرُ فِي أَمْرِ الْأَنْدَلُسِ ، بَعْدَ أَنْ

تَمَّ لَهُ الصُّلْحُ مَعَ الْفُونَسُو ، وَعَقَدَ مَعَهُ مُعَاهِدَةً مُدَّتْهَا

خمس سنين ، تعهد فيها ألفونسو ألا يتعرض
للمسلمين ، وأن يرفع الجزية التي كان قد وضعها
ملوك الطوائف . واستولت عليه فكرة الاستيلاء
على الأندلس ، حتى إذا ما اشتكى إليه أهل
الأندلس من ظلم ملوكهم ، وارتفاع الضرائب التي
يضعونها فوق كواهلهم ، جمع جيوشه لغزو
الأندلس ، ليضع المظالم عن أهلها .

وبلغت جيوشه الجزيرة الخضراء ، فخافه ملوك
الطوائف ، وقطعوا الميرة عن جيشه ، وأرادوا أن
يصدوه عن البلاد ، فاتفق ابن عباد مع ملوك الفرنجة
على قتاله .

وتقدمت جيوش ابن تاشفين ، تشق طريقها نحو
حواضر الأندلس ؛ فسقطت إشبيلية ، ووقع
ابن عباد في يد ابن تاشفين ، فبعث به إلى أغمات في
مراكش ، ليُمضى بقيّة عمره سجيناً ، فراشه

الغبراء ، وغطاؤه صفحة الهواء ، وأنيسه البكاء ،
وقرينه الداء ، وسحيره كل نوع من أنواع البلاء .

وقصد يوسف بطليوس ، وقبض على ملكها ابن
الأفطس وقتله . ودانت له الأندلس كلها .
وأصبحت في حوزته إلا سرقسطة ، فإنها بقيت في
يد بني هود ، لاعتصامهم بالفونسو ، ولبعدها عن
القوة المتدفقة من المغرب .

قضى ابن تاشفين مرة واحدة على الملوك الذين
كانوا يديرون ما في حوزتهم من بلاد ، إدارة كادت
تُلحق بالإسلام البوار ؛ ووطد ملكه في الأندلس ،
فكان ملكاً قوياً ، مرهوب الجانب ، جدّد الأمل في
بقاء الإسلام في أسبانيا ، بعد أن أشرف على
الزوال . وقد أمد يوسف ، بانتصاره في الزلافة على
جيوش الفونسو ، في عمر الإسلام بالأندلس أربعة
قرون .

مات يوسف ، واستمرت الأندلسُ في حكم
 المرابطين ، الذين كانوا حشّنين ، لا يعرفون أساليب
 السياسة ، وكانوا جامدين ، بعيدين عن التسامح
 الذي ألقه أهل الأندلس ، فمن حكموهم من الملوك .
 ودبّ الشقاق بين أحفاد ابن تاشفين ، طمعا في
 الملك ، ولاح أن الأندلس وشيكة الوقوع في أيدي
 الأسيان ، الذين كانوا ينتهزون فرص الشقاق بين
 المسلمين ، لينتزعوا من العرب المتنازعين المعازل
 والحصون . ولكن ثار المغرب على المرابطين في أواخر
 القرن الخامس الهجري ، فسقطت دولتهم ، وقامت
 دولة الموحدين ، على يد المهدي بن تومرت .
 ومات المهدي بن تومرت سنة ٥٢٤ هجرية ،
 فاتفقت رجالات المغرب على مبايعة عبد المؤمن

ابنِ عليّ ، وكان أكثرَ رجالِ المَهديِّ علَمًا وفضلاً
ودَهَاء .

سارَ عبدُ المؤمنِ سيرةَ حميدة ، فأحبه الناس ،
وكان أولَ من تسمّى في المغربِ بأميرِ المؤمنين .
بعثَ إلى الأندلسِ جيشًا من الموحّدين ، فتغلّبَ على
غربيّة ، ثمّ حاصرَ المريّة ، فاستغاثَ من كان فيها
بألفونسو ، فأرسلَ إليهم حليفه محمدَ بنَ مردئيش ،
على رأسِ جيشٍ من النصارى والمسيحيين ، فكسره
عبدُ المؤمن .

وظلّت جيوشُ عبدِ المؤمنِ في تقدّمِها ، تفتحُ
الأندلسَ بلدًا بعدَ آخر ، حتى مات ، وخلفه ابنُه
يوسف ، فاستمرَّ في جهاده ، حتى تمَّ له فتحُ
الأندلسِ جميعاً .

ودخلَ يوسفُ أشبيليةً ، وبنى جامعَها ، وأقامَ
جسرها ، واستتبَّ له الأمر . وعادَ الأسبانُ إلى

حُصُونَهُمْ ، يَرُصُّدُونَ فُرْصَ الضَّعْفِ ، لِيَنْقَضُوا عَلَى
الْمُسْلِمِينَ ، وَيَضْرِبُوا ضَرْبَتَهُمُ الْقَاضِيَةَ .

وَتَوَلَّى الْأَمْرَ بَعْدَهُ وَلَدُهُ الْمَنْصُورُ يَعْقُوبُ ، فَأَكْمَلَ
جَامِعَ أَشْبِيلِيَّةٍ حَتَّى صَارَ إِحْدَى عَجَائِبِ الدُّنْيَا ،
وَخَرَجَ لِحَرْبِ الْفُونَسُو ، فَاتَّحَدَ مَلُوكُ أَوْرَبَا ،
وَسَارُوا لِحَرْبِ الْمَنْصُورِ .

وَالْتَقَى الْجَمْعَانِ فِي الْأَرْكُوسِ (الْكَرْكِ) ،
وَدَارَتْ رَحَى مَعْرَكَةٍ رَهِيْبَةٍ ، قُتِلَ فِيهَا مِنَ النَّصَارَى
أَكْثَرُ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ ، وَغَنِمَ الْمُسْلِمُونَ غَنَائِمَ هَائِلَةً ،
حَتَّى إِنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَبِيعُونَ الْأَسِيرَ بِدِرْهَمٍ ،
وَالسَّيْفَ بِنِصْفِ دِرْهَمٍ ، وَالْحِمَارَ بِدِرْهَمٍ ، وَالْفَرَسَ
بِخَمْسَةِ دِرَاهِمٍ .

وَانْطَلَقَ الْمَنْصُورُ يَعْقُوبُ إِلَى طُلَيْطَلَةَ ، عَاصِمَةِ
الْفُونَسُو الثَّامِنِ ؛ وَحَاصَرَهَا ، فَأَخَذَ الْجَهْدَ بِخَنَاقِ
أَهْلِهَا ، وَكَادَتْ الْمَدِينَةُ تَخِرُّ سَاجِدَةً تَحْتَ أَقْدَامِ

الأمير ، ولكنَّ أمَّ ألفونسو وبناته وحرمة خرجوا إلى
يعقوب وخرُّوا ساجدين تحتَ أقدام المنصورِ
يعقوب ، يتوسَّلون ويرجُون ويلحفون في الرجاء ،
واستغاثوا به وبمروءته ، فأكرمهم ، وأعادهم إلى
مقرهم مُعزَّزاتٍ مُكرِّمات ، ورفع الحصارَ عن
طليطلة ، وما دارَ بخَلده أنْ أبناء هؤلاء الذين
أكرمهم سيضطهدون العرب الذين كُتبَ عليهم أن
يُشاهدوا زوالَ الملكِ العربيِّ من الأندلس ، أشدَّ
اضطهاد .

٥

ومات يعقوبُ المنصور ! وفي سنة ٦٠٩ هجرية ،
انطلق ابنه عبدُ الله محمدُ الناصرُ إلى الأندلس ، في
سِتِّ مائة ألفِ مُقاتِل ، ليفتحَ معاقِلَ أوربة . وبلغَ
البابا خروجُه ، فأعلنَ الحربَ المقدَّسة ، فإذا بالجُيُوشِ
النَّصرانيَّةِ تتدفَّقُ من إيطاليا وفرنسا وألمانيا إلى أسبانيا
لملاقاته .

أعجبَ النَّاصِرُ بكثرةِ جيوشِهِ ، فراحَ يفتِكُ في
سيرِهِ برجالِ الأندلسِ ، فوزيرُهُ ابنُ جامعَ أشارَ
عليه بذلك ، ليخلَوْ له وجهُ الأندلسِ ، دونَ الأمراءِ
المُسلمينَ جميعاً . ولم يستشِرْ رؤساءَ البلادِ وقادتها ،
بل أهملَ أمرَهُم ، مُغترّاً بالجيشِ الجرَّارِ الذي يُلقى
الرُّعبَ في قلوبِ أعدائه .

وفي سُهولِ نافار وتولوزا ، على بُعدِ مائةٍ وأربعينَ
كيلومتراً من قرطبة ، في ذلكَ المكانِ الذي يُسمِّيهِ
العربُ العقاب ، لكثرةِ ما كانَ فيه من العقبات ،
التقتْ جيوشُ أوربَّةِ المُتَّحِدةِ بجيوشِ النَّاصِرِ ،
وهزمتها هزيمةً نكراءَ ، كانَ من أثرها تمزُّقُ جيوشِ
المُسلمينَ ، وسقوطُ زهرةِ شبابِهِم قتلَى ؛ فلاحَ لكلِّ
بصيرٍ أنَّ أيَّامَ العربِ الأخيرةِ في الأندلسِ قد
لاحت ، وأنَّ شمسَهُم أوشكتُ أن تَغيبَ .